Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

ملامح المنهج التاريخي في كتاب "تاريخ القرآن" لنولدكه

د. ابراهيم زلافي .
قسم اللغة والأدب العربي . .كلية .الاداب واللغات .
جامعة محمد بوضياف – المسيلة . الجزائر

ملخص:

ترمي هذه المقالة إلى إبراز ملامح المنهج التاريخي الذي وظفه المستشرق الألماني تيودور نولدكه، في كتابه "تاريخ القرآن" والذي تطرق فيه إلى دراسة شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، ومصدر القرآن الكريم ومراحل نزوله وطريقة جمعه وتدوينه، من خلال الأحداث والبيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية في تلك الحقبة.

الكلمات المفتاحية :

قرآن – تاريخ – استشراق . الآخر

Résumé :

Cet article a pour but de mettre en évidence les caractéristiques de la méthode historique employée par l'orientaliste allemand Théodore Noldeké dans son livre (l'Histoire du Coran), par son étude de la personnalité du prophète (Que le Salut de Dieu Soit sur Lui), la source du Saint Coran, les phases de sa descendance ainsi que les principaux moments de sa collecte à travers les faits et l'environnement social, politique et culturel ayant entouré cette descendance du Coran durant cette période.

تمهيد:

بعد تحرر الدراسات الدينية واللغوية من قبضة الكنيسة، قام علماءٌ بروتستانت من ألمانيا في مطلع القرن التاسع عشر، بتطبيق المناهج النقدية التي ظهرت في أوربا في دراستهم للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وتعتمد هذه المناهج منهجية تاريخية، بعيدة عن أي تأثير ديني، ولا تتقيد بقدسية النص. ومع منتصف القرن التاسع عشر انكب علماء اللغات على دراسة القرآن الكريم، لاستكشاف الوقائع التاريخية المرتبطة بمصدره ونشأته وتطوره ومصيره، وعلاقته

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

بالديانتين المسيحية واليهودية، وكان من بين هؤلاء العلماء **تيودور نولدكه** Noldeké Théodore .

فمن هو تيودور نولدكه Noldeké Théodore ؟

إنه شيخ المستشرقين الألمان، ولد في 2مارس 1836م بمدينة هاربورج، وتوفي في 25 ديسمبر 1930م بمدينة كارلسروهه، أتقن اللغات السامية: العربية، العبرية والسريانية. عيّن سنة 1861م معيدا في جامعة جيتنجن الألمانية، ثم شغل منصب أستاذ اللغات السامية في جامعة ستراسبورج عام 1872م، أولى اهتماما خاصا بالمخطوطات الإسلامية. من أعماله: "أصل وتركيب سور القرآن" صدر عام 1856م، "تاريخ القرآن" صدر سنة 1860م، "نحو العربية الفصحى" نشر عام 1897م، "أبحاث في علم اللغات السامية" صدر سنة 1904، "القرآن الرسمي في قراءة أهل مصر"[1]وغيرها من المؤلفات. وكتابه " **تاريخ القرآن** Geschichte des Qorâns" كان رسالته للدكتوراه باللغة اللاتينية أنجزها عام 1856م، ثم أعاد كتابتها باللغة الألمانية، وصدرت طبعتها الأولى عام 1860 تحت عنوان: "**تاريخ القرآن**". حفل هذا الكتاب بالشبهات ضد القرآن الكريم وضد الرسول صلى الله عليه وسلم. تطرق فيه إلى نشأة القرآن الكريم وجمعه وروايته وترتيبه. يحتوي هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء: "في أصل القرآن" ، " جمع القرآن"، "تاريخ نص القرآن". ترجم من طرف جورج تامر من اللغة الألمانية إلى اللغة العربية في مجلد واحد، صدرت طبعته الأولى عن مؤسسة كونراد بألمانيا عام 2004.

– منهج Noldeké في دراسته للقرآن الكريم:

تقوم عملية تطبيق المناهج النقدية الحديثة على الموضوعية والأمانة العلمية، إلا أن Noldeké سلك عكس ذلك في دراساته للقرآن الكريم، من أجل إثبات النقص والخطأ والتناقض فيه، وطمس حقيقته الإلهية وإشاعة الشبهات حوله، محاولا أن يثبت أن القرآن هو من تأليف محمد. قادته دراسته إلى نتائج تتناقض كلياً مع ما هو ثابت في العقيدة الإسلامية، هذا لأنه افترض فروضاً تحيله مباشرة على النتائج التي صاغها مسبقاً. ركز في منهجه على دراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، والبيئة الاجتماعية والسياسية والثقافية للعصر التي عاش فيه، محاولا من خلال هذه الظروف إثبات أن القرآن الكريم نتاج ظروف اجتماعية وسياسية أثرت فيه وتأثر بها

– نماذج من مؤلفات المستشرقين حول القرآن الكريم:

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

المستشرق	الجنسية	الكتاب
جوستاف فايل Gustav Weil (1858-1889م)	ألماني	مدخل تاريخي نقدي للقرآن
ريجس بلاشير Régis Blachère (1900- 1973)	فرنسي	القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره
جورج سال George Sale (1697- 1736)	انكليزي	التطور التاريخي للقرآن
وليام موير William Muir (1815-1905)	اسكتلندي	القرآن،تأليفه وتعاليمه

- ملامح المنهج التاريخي في كتاب "تاريخ القرآن":

لايعترف Noldeké بالمصدر الإلهي للقرآن الكريم، ولذلك فإنه ينطلق من مسلمة بديهية تقول ببشرية القرآن واعتباره نصاً أدبياً، وأطلق عليه المستشرقون أسماء شتى منها: الدين المحمدي، المحمدية، قرآن محمد وغيرها من الأسماء، بدلا من الدين الإسلامي أو القرآن الكريم، وجعلوا من نزوله ظاهرة أو واقعة تاريخية. وبناء على هذا الاعتقاد فهم يكَذِّبون الوقائع والأحداث الصحيحة والروايات التاريخية المتعلقة بعلوم القرآن.

أما فيما يخص جمع المعلومات من المصادر، فقد اعتمد المستشرقون على بعض المصنفات التي لم تتحر الصحة والنقد والرواية الصحيحة مثل: كتاب المصاحف لابن أبي داود، وكتاب الفهرست لابن النديم، وكتاب مروج الذهب للمسعودي، وكتاب الأغاني للأصفهاني، وبعض كتب المستشرقين السابقين لهم.

يدعي Noldeké أنه قرأ القرآن الكريم، ودرس السنة النبوية، حتى يضفي على أقواله الموضوعية والأمانة في البحث، والدقة في المنهجية، إلا أنه لا يعترف بهما. قيل عن المستشرقين:‹‹... والمستشرقون أيضاً حرصوا كل الحرص على أن يضفوا على أنفسهم هيبة العلم وقداسة محرابه، وأن يخفوا تحت شارته وردائه كل أغراضهم وأهوائهم... أن كلام المستشرقين في العلم والمنهجية وحرية البحث والحيدة العلمية مجرد أقنعة تتراكم وتتراكب إمعاناً في إخفاء ما تحتها... ››[2].

يزعم Noldeké أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم غريزة ساقته إلى إعداد القرآن بتفكير واع من بيئته ومن المصادر اليهودية والمسيحية، ويظهر هذا من قوله : « إن محمداً حمل طويلاً في وحدته ما تسلمه من الغرباء، وجعله يتفاعل وتفكيره، ثم أعاد صياغته بحسب فكره»[3]. والغرباء في كلام Noldeké هم اليهود والنصارى. إذا كان القرآن الكريم في الآية 285 من سورة

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

البقرة التي يقول فيها الله عز وجل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)﴾. قد أمرنا أن نؤمن بالأنبياء السابقين وبرسالاتهم التي كلفهم الله بها، فإن Noldeké يفسر ذلك تفسيراً خاطئاً، ويريد أن يثبت من خلال ما جاء في القرآن الكريم من ذكر لأسماء الرسل وكتبهم، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استوحى أسماء الرسل السابقين من كتب اليهود والنصارى. وهي منهجية يعتمد عليها كل منصر يسعى إلى محاربة القرآن الكريم، وهذا ما يكشف عنه قول جون تاكلي John Takle الذي يقول:«يجب أن نستخدم القرآن وهو أمضى سلاح ضد الإسلام نفسه، بأن نعلم هؤلاء الناس- يعني المسلمين- أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد ليس صحيحا »[4].

ينفي Noldeké صفة النبوة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ويزعم أنه لم يكن بتلك الأوصاف التي اتصف بها الأنبياء من قبله كالشجاعة والقوة والعزم، فيصوغ فرضيات تمكنه من الوصول إلى هذه النتيجة التي حددها مسبقاً. يحاول أن يلصق كل صفة ذميمة بالرسول صلى الله عليه وسلم كالضعف والخوف، قائلاً: « يضاف إلى ذلك أمر يود المسلمون بالطبع أن يخفوه، ألا وهو أن محمداً كان بطبعه ضعيف العزم، أجل كان يخاف إلى درجة أنه لم يتجرأ في البدء على المجاهرة برسالته »[5]. إن محاولة نولدكه تثبيت أحكام وإلصاق صفات ذميمة بالرسول صلى الله عليه وسلم قصد تثبيتها في أذهان الغرب، لهو دليل قاطع على أنه كاذب في حديثه وادعائه، وأنه لم يلتزم الموضوعية في دراسته كما يدعي، وإلا كيف يفسر القارئ هذه الأوصاف التي وصف بها Noldeké الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ بينما نجد كارليل و"مايكل هارت" وغيرهم ممن عرفوا الحقيقة يصفون الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه أعظم رجل عرفته البشرية.

تحدث Noldeké عن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم، منطلقاً من الفكرة اليهودية التي ترى أن كل أمةلم ينزل في لغتها كتاب فهي أمة أمية، زاعما بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة، لأنه عمل في التجارة، وكان يحفظ خطب زيد بن نفيل وأشعار أمية بن الصلت، وكان يعتقد بالأساطير السائدة في زمانه وأن كلمة "أمي" تعني عدم معرفة الكتب المقدسة[6]. لو كان ما يدعيه Noldeké صحيحاً، لكانت قريش والعرب سبقته إلى ذلك الأمر، وخاصة وهو يتلو الآية 48 من سورة العنكبوت التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (48) ﴾

لم يمارس الرسول صلى الله عليه وسلم التجارة إلا مرتين: مع عمه وكان حينذاك غلاماً، ولخديجة وكان يرافقه العبد ميسرة، وكانت التجارة تبادلا للسلع فقط، ولم تتطلب الحاجة إلى تسجيل

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

أسماء السلع وأسعارها. أما عن حفظ الأشعار والخطب فلو كان ذلك مصدرا للقرآن الكريم لكان زيد بن نفيل وأمية بن أبي الصلت سبقا الرسول إلى تأليف القرآن.

زعم Noldeké أن الوحي حديث وهم وخرافة، ووصف حالة نزول الوحي بأنها أحد عوارض داء الصرع، والاضطراب النفسي الشديد، حيث يقول:«... حيث أن فقدان الذاكرة هو أحد عوارض داء الصرع الفعلي، فمن الضروري أن نصف ما كان يغشاه بحالة من الاضطراب النفسي الشديد. ويقال أن محمداً كان يعاني منها منذ حداثته»[7]. كان من الواجب على Noldeké كباحث أن يلتزم الموضوعية والحياد والأمانة العلمية، ويسرد الأحداث كما هي لا كما يتصورها هو، إنه يتعمد بقصد أن يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الصفات، وهو يدرك جيداً أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يصدر عن رجل مريض بداء الصرع، وإلا لكان كل مجنون ألف كتاباً مثل القرآن الكريم، وهذا لن يحدث أبداً.

وصف Noldeké أسلوب القرآن بالاضطراب، ونعت لغته بالفضفاضة، وجعله قريباً من أقوال الكهان في الجاهلية، ويزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم هو مؤلف القرآن، وقد استعمل هذا الأسلوب، وأدخل عليه بعض التعديلات، وتصرف في طول السور والآيات[8]. يلجأ Noldeké إلى الأحكام الجاهزة، التي تفتقر دوماً إلى الدقة والموضوعية، ويبني عليها طعونه وسمومه، فوصفه للقرآن الكريم بالتناقض والاضطراب، هو حكم ينتظره القارئ ويتوقعه دائماً، لأن من مسلمات نولدكه أن القرآن إنتاج أدبي ألَّفه شخص يدعى محمد. ونحن نقول لو كان في أسلوب القرآن الكريم اضطراباً، أو تناقضاً، أو كان من أقوال الكهان، لكانت العرب عامة وقريش خاصة وهم أصحاب الفصاحة والبيان أسبق إلى الاعتراض من Noldeké وأتباعه، لكن العرب وجدت هذا الأسلوب فوق كلام كل البشر.

وضع المستشرقون في صياغة الفروض فرضيات تمكنهم من الوصول إلى النتائج التي حددوها مسبقاً، ومن بين هذه النتائج: بشرية القرآن، كتبه محمد، أن مصدره التوراة والإنجيل، القانون الروماني، الأساطير وغيرها. وهذه تعد خيانة للمنهج العلمي المتبع في البحث والدراسة، يقول عنهم عبدالعظيم محمود: ‹‹ دأب كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق، ثم يقومون لها بجمع المعلومات – من كل رطب ويابس – ليس لها أي علاقة بالموضوع سواء من كتب الديانة والتاريخ أو الأدب والشعر، أو الرواية والقصص، أو المجون والفكاهة، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها، ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة، ويبنون عليها نظرية ليس لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم ››[9].

تظهر ملامح تطبيقات المنهج التاريخي من خلال محاولات Noldeké إرجاع ما تضمنه

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

القرآن الكريم إلى عوامل البيئة في الجزيرة العربية، حيث يزعم أن البيئة الثقافية والاجتماعية في الجزيرة العربية، والمتمثلة في جماعات اليهود في يثرب وانتشار المسيحية في الجزيرة العربية كان له تأثير على الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ثم على القرآن الكريم، حيث يقول: ‹‹ تواجد اليهود في أماكن عدة من شبه الجزيرة العربية، وكانوا يقيمون في مناطق يثرب، التي كانت على صلة وثيقة بموطن محمد ... وكانوا يترددون إلى مكة كثيرا ... كانت المسيحية على انتشار واسع في شبه الجزيرة العربية ››[10].

ولا يتردد Noldeké في كل مرة أن يؤكد تأثير البيئة الثقافية اليهودية والنصرانية على تعليم وثقافة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن ثم على لقرآن الكريم، حيث تحدث عن المسار التاريخي لنشوء كل من الديانتين المسيحية واليهودية، وعن مصدرهما الإلهي، ثم انتقل إلى الحديث عن مصدر القرآن الكريم وأرجع تأليفه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، من الديانة اليهودية والديانة المسيحية، وفي هذا يقول: «إن اطلاع محمد على اليهودية والمسيحية كان جيداً إلى الحد الذي كان ممكناً في عصره في مكة، وقد اعتمد على هاتين الديانتين إلى درجة أنه نادراً ما توجد فكرة دينية في القرآن ليست مأخوذة عنهما »[11]. حيث جاء في قوله:‹‹... تقبل أهم أجزاء تعليمه من اليهود والمسيحيين شفوياً على الأرجح ››[12].

كما حاول Noldeké صرف الأنظار عن المصدر الإلهي للقرآن الكريم، وسعى إلى إثبات فرضيته القائلة ببشرية القرآن، فصور لغته على أنها لغة شعر، واختلق بعض مواطن التشابه والمماثلة بينهما، وزعم أن لغة القرآن تشبه إلى حد كبير لغة الشعر العربي القديم في إيقاعه ووزنه وقافيته. وخرج بنتيجة مفادها أن القرآن الكريم من تأليف محمد وأنه نقله من شعر أمية بن أبي الصلت، حيث يقول: « وأُعْجِب بأشعار أمية بن أبي الصلت، على الرغم من أنها لا تحتوي شعراً حقيقياً، بل آراء مستعارة، وتنميق كلام خطابي»[13].

يستدل على ذلك بأشعار الشاعر المخضرم أمية بن أبي الصلت، وقد كان قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله عز وجل، ورغب عن عبادة الأوثان، وكان يخبر بأن نبياً يبعث قد أطلَّ زمانُه، ويُؤَمِلُ أن يكون ذلك النبي، فلما بلغه خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصتُه كفرَ حسداً لهُ. ولما أُنشِدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شعرَهُ قال: آمن لسانُهُ وكفرَ قلبُهُ [14]. ويزعم Noldeké أن المسلمين قد محوا شعر "أمية" وحرموا إنشاده، وذلك حتى ينفرد القرآن الكريم بالجدة ومن ثم يصبح النبي – صلى الله عليه وسلم- هو المنفرد الوحيد بالوحي الإلهي. ويقول في موضع آخر: «هذا الأسلوب الذي هيمن على أقوال الكهان القدماء، استعمله أيضاً محمد مدخلاً عليه بعض التعديلات »[15].

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

عاش أمية بن أبي الصلت الجاهلية وأدرك الإسلام، وقد سمع القرآن الكريم وتأثر به وكاد أن يسلم لو لا عصبيته لأبناء خاله الذين قتلوا في معركة بدر[16]. ويروى في الحديث الشريف، أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع بشعره فقال: ‹‹ فَلَقَدْ كَادَ يُسْلِمُ فِي شِعْرِهِ ››[17].

نجد ملامح المنهج التاريخي في اعتبار Noldeké لفترة نزول الوحي كمرحلة نهائية من مراحل تطور الأدب العربي الجاهلي، ووفقاً لذلك فهو في نظرهم أدبا بشرياً تنطبق عليه خصائص وطبائع الأدب البشري، فتعاملوا معه بعيدا عن قدسيته كأنه آثار أدبية قديمة أو أساطير خرافية. وهذه النظرة تكاد تكون عامة في كتب "تاريخ الأدب" ومن الأمثلة على ذلك:

اتجهت جل الدراسات الاستشراقية إلى دراسة علاقة القرآن الكريم بالديانة اليهودية والديانة المسيحية، ثم تناولت مرة أخرى بيئة العرب في الجزيرة العربية وما كان فيها من ديانات منتشرة، ثم تناولوا بالدراسة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلاقته بهتين الديانتين في جزيرة العرب، وأسسوا بذلك لفريضة مفادها أن القرآن تأثر بكتب العهدين القديم والجديد.

كما نجد تطبيقات المنهج التاريخي في دراسات المستشرقين لعملية جمع القرآن الكريم وتدوينه وترتيبه، وفي هذا المجال تناول Noldeké وفق منهج تاريخي المراحل التاريخية المتعاقبة التي تم فيها جمع القرآن الكريم وتدوينه، والأيادي التي تناولته، حيث يقول: « عدا التدوين الذي كان محمد نفسه وراءه، ربما كانت هناك أيضاً عمليات تدوين أخرى تتفاوت في حجمها، قام بها مناصرون غيورون لتعليمه بأنفسهم أو أوكلوا بها آخرين. إلى جانب هذا كان هناك الحفظ في الذاكرة، الذي كان في وقت كانت فيه القراءة والكتابة من الفنون النادرة ذا أهمية كبيرة.إضافة إلى العدد غير القليل من الصحابة الذين حفظوا غيباً مقاطع قصيرة، بقدر ما كان هذا ضرورياً لتلاوة الصلوات، كان هناك أفراد استطاعوا أن يحفظوا جزءاً من الوحي، لم يدون نصه أبداً أو ضاع في ظروف معينة من الفقدان التام »[18].

سعى Noldeké إلى إثارة قضية جمع القرآن الكريم وترتيبه وحفظه، محاولا إشاعة فكرة أن ترتيب سور القرآن الكريم هو اجتهاد من الصحابة وليس أمرا توقيفيا، وتصرف الصحابة فيه أدى إلى نوع من التحريف والتبديل والزيادة والنقص. واعتماد Noldeké على النصوص الشاذة والروايات الضعيفة، والتشكيك في الروايات الصحية واستبعادها جعله يحيد عن المنهج الصحيح للبحث والدراسة وكان ذلك تعمدا منه للمبالغة في الشك وإنكار الحقائق. وهذه القضية حسمها المولى عز وجل في الآية 9 من سورة الحجر: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)**﴾. وأدرك علماء الإسلام إعجاز ترتيبه، والمنهج الصارم في تدوينه.

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

ثم تناول Noldeké قضية الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، محاولا إرجاع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث يرى أن النسخ أمر:

- صعب التصور.
- يدعو إلى السخرية.
- غريب أقتبس مفهومه من اللغة الآرامية.
- ينكره بعض من المسلمين[19].

يحاول Noldeké من خلال الفرضيات التي طرحها أن يوهم القارئ أن قضية النسخ أمر مصطنع، لا يمكن تصوره أو وقوعه، لإنكار المسلمين له، ويمكن أن يكون مقتبس من اللغة الآرامية. ليصل إلى نتيجة أن القرآن الكريم ليس كلام الله، وإنما هو من صنع محمد صلى الله عليه وسلم، وأن محمداً هو الذي يضع القوانين والأحكام ويغيرها بحسب أهوائه. وهذه الطعون التي تقدم بها Noldeké هي نفس المفتريات التي جاءت على لسان كفار قريش إبان الدعوة المحمدية، والتي تحدث عنها القرآن الكريم في سورة البقرة الآية 106 في قوله تعالى﴿ **مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)** ﴾. وردَّ القرآن الكريم عن افتراء الكفار بقوله تعالى في سورة النحل الآية 101: ﴿ **وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)** ﴾.

هكذا رأى المستشرقون أنه مادام القرآن يعكس أوضاع البيئة الاجتماعية والسياسية فإن هذا يمثل دليلا على بشريته وتأليفه من طرف محمد. ومن خلال هذا الطرح حاول Noldeké ترتيب سور القرآن الكريم من حيث الزمان والمكان إلاّ أنه وصل إلى نتيجة مفادها استحالة هذا الترتيب. وقد اتجه إلى ترتيبه طبقا لمراحل متوالية، أحيانا حسب الأسلوب وأحيانا أخرى حسب المواضيع التي عالجها القرآن سواء كانت سياسية أو دينية أو اجتماعية. ووفقا لهذا الترتيب قسم القرآن إلى قرآن مكي وقرآن مدني حسب المعايير الزمنية والمكانية. وجعل القرآن المكي أقساما، حيث رتب القرآن في القسم الأول تبعا لوحدة الأسلوب وقصر الآيات واختصار المعاني وخلوها من التشريع والأحكام.

كما تناول أسباب النزول للسور والآيات القرآنية، معتبراً النقل التاريخي والتفسيري غير كاف في تحديد أماكن وأسباب نزول السور والآيات، ويشكك في جهود العلماء المسلمين، ويعتبرها ناقصة، ويرى أنه لا يمكن الاعتماد عليها في رسم الحدود الزمنية التي نزلت فيها السور والآيات، يقول في هذا الصدد: « قدر أكبر من الشك يطال الكثير من الأحاديث المروية التي يسوقها المؤرخون والمفسرون حول مختلف الوقائع الصغيرة، من أجل تفسير آيات مفردة »[20].

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

تبنى Noldeké في هذا الجزء التقسيم المعهود للقرآن الكريم إلى مكي ومدني، لكنه وزع السور المكية على فترات ثلاث، معتمداً على ما يجمعها من أسلوب ومضمون. فقد جعل من الاختلاف في الأسلوب سبيلا يؤدي كما يزعم إلى التعرف على مجموعات مختلفة من السور القرآنية، نشأت في فترات مختلفة[21]. وهكذا قسم Noldeké مراحل نزول القرآن إلى أربعة:

***المرحلة الأولى:** تبدأ من السنة الأولى للبعثة إلى السنة الخامسة، ويمتاز أسلوبها حسب Noldeké بالحماسة، مليئة بالشجاعة، تمتاز بتصوير بلاغي وتنويع شعري، تعكسه الآيات القصيرة. ويميز هذه الآيات عبارات القسم. وفي ترتيبه لسور المرحلة الأولى، يضع نولدكه سورة العلق في المرتبة الأولى باعتبارها أول سورة نزلت من القرآن الكريم، ما عادا الآيتين (6 و 19) نزلتا في وقت متأخر[22].

***المرحلة الثانية:** يحددها Noldeké من السنة الخامسة إلى السنة السادسة من البعثة المحمدية، ويرى بأن بعض هذه السور تشبه في أسلوبها لسور المرحلة الأولى، وبعضها تشبه في أسلوبها لسور المرحلة الثالثة، ويضع سورة "القمر" في المرتبة الأولى. ويرى أن النبي صلى الله عله وسلم قد ذكر أمثلة عن الطبيعة والتاريخ، وأن الطابع الشعري للسور قد قل في هذه المرحلة، وأصبحت التصويرات أشمل وأوسع[23].

***المرحلة الثالثة:**من السنة السابعة للبعثة إلى غاية هجرة الرسول إلى يثرب عام 622م، يرى أن سور هذه الفترة لم يطرأ عليها تطور يذكر في الأسلوب، وأن ما امتازت به عن السور السابقة هو طول آياتها، وتضمنها لعبارة (يا أيها الناس)، ويضع نولدكه سورة "السجدة" على رأس سور المرحلة الثالثة[24].

***المرحلة الرابعة:** وهي مرحلة السور المدنية، ويرى نولدكه أن سورها تختلف من ناحية الأسلوب عن سور المراحل المكية، وهي سور طويلة مقارنة بالسور المكية، تتضمن جملة من الأوامر والقوانين والوصايا. ويضع نولدكه سورة " البقرة " في بداية ترتيبه لسور المرحلة الرابعة[(1)]، لأنه يراها أقدم سورة نزلت بالمدينة، وأن الجزء الأكبر منها (الآية1إلى الآية 37) نزل قبل السنة الثانية للهجرة، أي قبل معركة بدر، ويعتبر هذا الجزء مكياً متأخر النزول.أما الآيات من(98 إلى 115) تعود إلى وقت تحديد القبلة، أما الآيات الأخرى الباقية فيراها حديثة العهد،كما أنه يعترض على ترتيب بعض الآيات في سورة البقرة[25].

Edited with the trial version of Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit: www.foxitsoftware.com/shopping

أثبت هذا الترتيب الذي وضعه Noldeké وغيره من المستشرقين الذين جاؤوا من بعده ومنهم بلاشير، استحالة حدوثه خارج دائرة التصنيف التي قام بها المسلمون الأوائل، والتي تتحدد من خلال الرواية الصحيحة التي هي السبيل الوحيد في ترتيب القرآن الكريم ترتيبا صحيحا .

خلاصة القول، فإن Noldeké درس القرآن الكريم بمنهج يقوم على الذاتية والانحياز إلى خلفيته الثقافية والدينية، من أجل بث الشكوك حول مصدر القرآن الكريم وجمعه وتدوينه، ظناً منه أنه بإمكانه تطبيق المناهج النقدية على القرآن الكريم، وإثبات صحة نظرياته القائلة بالمصدر البشري للقرآن الكريم، وهو الأمر الذي أعلن فشله كثير من المستشرقين المنصفين الذين درسوا القرآن الكريم دراسة موضوعية وحافظوا على الأمانة العلمية، بعيدا عن ميولهم الذاتية والدينية. وقد رسم بعض المستشرقين في العصور الوسطى عن قصد وحقد صورة مشوهة للقرآن الكريم والإسلام وللرسول صلى الله عليه وسلم، وكان هدفهم إبعاد الإنسان الأوربي عن الإسلام حتى لا يتعرف عن هذا الدين الجديد ويعتنقه. وعملوا على طمس الحقائق وبث الشبهات، وزرعها في المجتمعات الإسلامية عن طريق تلامذتهم العرب، بهدف إبعاد المسلم عن دينه وطمس هويته، وإقناعه بأنه لا يستطيع أن يساير النهضة إلا إذا تخلى عن دينه.

كما شكل انحراف Noldeké عن مسار المنهج الصحيح في دراساته للقرآن الكريم بعقلية أوربية بعيدة كل البعد عن الفكر الإسلامي تجاوزا خطيراً وفهما قاصراً، أفقد مناهج الدراسات الاستشراقية قيمتها العلمية عند القارئ العربي.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش
- صحيح مسلم
1- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1993.
2- عبد العظيم محمود، المستشرقون والتراث، مكتبة ابن تيمية، البحرين، ط1، 1986م.
3- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1958.
4- محمد أمين حسن، المستشرقون والقرآن الكريم، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2004.
5- منقذ بن محمد السقار، تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، رابطة العالم الإسلامي، مكة، دت.
6- نولد كه، تاريخ القرآن، تر: جورج تامر، مؤسسة كونراد، بيروت، ط1، 2004.

الهوامش:

[1] - عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1993، ص164.

[2] - عبد العظيم محمود، المستشرقون والتراث، مكتبة ابن تيمية، البحرين، ط1، 1986م، ص730.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

3 – نولدكه، تاريخ القرآن، تر: جورج تامر، مؤسسة كونراد، بيروت، ط1، 2004، ص4.

4– ينظر: محمد أمين حسن، المستشرقون والقرآن الكريم، دار الأمل للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2004، ص394.

5 – نولدكه ، تاريخ القرآن ، ص 5 .

6 – المرجع نفسه، ص ص14-18 .

7 – المرجع نفسه، ص ص 20-30 .

8 – المرجع نفسه، ص ص32 -34 .

9 – عبد العظيم محمود، المستشرقون والتراث ، ص745.

10 – نولدكه، تاريخ القرآن، ص8.

11 – المرجع نفسه، ص 343.

12 – المرجع نفسه، ص 16.

13 – المرجع نفسه، ص33.

14 – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1958، ص459.

15 – نولدكه، تاريخ القرآن، ص34.

16 – السقار منقذ بن محمد، تنزيه القرآن الكريم عن دعاوى المبطلين، رابطة العالم الإسلامي، مكة، دت، ص81.

17 – مسلم، صحيح مسلم،كتاب الشعر، الحديث:2255.

18 – نولدكه، تاريخ القرآن، ص 239.

19 – المرجع نفسه، ص ص49-50.

20 – المرجع نفسه، ص53.

21 – المرجع نفسه، ص66 .

22 – المرجع نفسه، ص ص 73-104.

23 – المرجع نفسه، ص ص 105-127.

24 – المرجع نفسه، ص ص 128-147.

25 – المرجع نفسه، ص ص 147-209 .